

سبيده أفسار رضائي*

ذو القرنين وكوروش

رؤية قرآنية

(ص ١٩٥ - ٢٠٤)

ملخص

يتناول المقال ذا القرنين بنظرة قرآنية مدعومة باستدلال تاريخي. القرآن الكريم إذ قصّ على العرب ما يرتبط بذي القرنين، فإنه خاطب مَنْ كان يعرف هذا الاسم من قبل، لأنه بدأ القصة من كلمة «يسألونك»، ومن الواضح أن القرآن الكريم في هذه القصة وفي سائر القصص القرآني إنما يتناول الأحداث العامّة التي فيها عظة وعبرة، ولا يتطرق إلى التفاصيل.

السؤال المطروح هو: من هو ذو القرنين، وأية منطقة كان يحكمها؟ المؤرخون لا يستطيعون أن يمدونا بمعلومات كافية سوى ما عُثر عليه في الحفريات، غير أننا نستطيع أن نجتمع بين البيان القرآني والمعلومات الأثرية المستحصلة لنخرج بنتيجة أكثر اطمئنانًا في هذا المجال.

مقدمة

قصة ذي القرنين كانت موضع اهتمام المسلمين على مرّ التاريخ الإسلامي لورودها في القرآن، والمؤرخون حاولوا من خلال نصوص الروايات أن يعرفوا هذا العَلَمَ من

* - جامعة آزاد الإسلامية - قسم التاريخ.

أعلام القرآن الكريم، غير أن بعض المحاولات لم تكن تخلو من تحيز. من هنا فإن التأكيد على النص القرآني هو السبيل الوحيد الذي يقينا الوقوع في زلل المعرفة. لا بد من اتخاذ ما ورد في القرآن محوراً نفهم من خلاله ما ورد لدى المؤرخين، لا أن نحمل القرآن الكريم آراء المؤرخين.

ذو القرنين في الرؤية القرآنية والتاريخية

يقول سبحانه عن ذي القرنين:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَأَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلَنَّا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا، قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا، ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا، كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا، ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا، آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا، قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا.﴾

في بعض الروايات ورد أن ذا القرنين كان نبياً وملك الشرق والغرب، وأن الله سبحانه لم يؤت الملك والنبوة بعد نوح إلا لأربعة هم: ذو القرنين واسمه عياش، وداود، وسليمان، ويوسف. وفي الروايات ورد ذكر مسجد ذي القرنين، وقيل إنه بناء كبير، ويروي المجلسي عن الثعلبي أن محل سد ذي القرنين هو النهاية الشرقية من أرض الترك.

● ذو القرنين وكوروش - رؤية قرآنية

النص القرآني يفصح كما ذكرنا أن ذا القرنين كان معروفاً لدى جماعة من أهل مكة والمدينة، وربما كان ذلك عند أهل الكتاب. وقد يكون السؤال الموجه إلى رسول الله (ص): ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ ﴾ كان من قبل اليهود، لاختبار النبي أو لإحراجه كما ظنوا، وقد ورد منهم السؤال للرسول عن الخضر وأصحاب الكهف.

النص القرآني يفصح عما يلي:

١ - الشخص الذي ورد في سؤال السائلين لقبه ذو القرنين، فاللقب ليس من القرآن، بل من السائلين.

٢- النص القرآني يقول: ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فالذي يتلوه القرآن هو ذكر للسائلين والمتلقين، وليس هو لمتعة تاريخية.

٣- الله سبحانه مكّن لذي القرنين في الأرض، ووفّر له أسباب هذا التمكين ليحقق هدفه: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾.

٤- ذو القرنين نهض بأعمال كبيرة يشير النص إلى ثلاثة منها. الأول: توجهه نحو الغرب وتوغله في المغرب حتى كأن الشمس هناك ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ الثاني - توجهه نحو الشرق، ووصوله إلى أقوام قد يكونون بسبب بدواتهم لم يستتروا من الشمس. الثالث - وصوله إلى جبلين بينهما شعب، وفيه أقوام ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ وفي الجانب الآخر من الجبلين أقوام آخرون يسمون بأجوج ومأجوج يغيرون دومًا على هؤلاء الساكنين بين السدين. هؤلاء طلبوا من ذي القرنين أن يفعل ما يحول دون وصول مأجوج ومأجوج إليهم.

٥- هذا الملك صنع لهم في الشعب بين الجبلين سدًا يقيهم من الغارات.

٦- هذا السدّ استخدم في صنعه الحديد والنحاس، وكان من العلوّ والاستحكام ما يقي سكّنة الشعب من الغارات.

٧- هذا الملك كان مؤمنًا موحدًا يرى كل ما فعله من رحمة الله سبحانه.

والنص أيضًا يتضمّن معلومات أخرى:

هذا الملك عادل وميسر على الناس ورحيماً بهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

وهذا الملك دفع الناس للمشاركة في أمر بناء السد: ﴿فَاعْيُنُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا، آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ... قَالَ انْفُخُوا... قَالَ: آتُونِي أَفْرَعُ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾. ولم يأخذ مقابل عمله مالا رغم أن القوم قالوا له: ﴿نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ لكنه قال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾.

بهذه الصفات المذكورة في القرآن نبحت عن شخصية ذي القرنين. قال بعضهم إنه الملك الذي حكم قرنين من الزمان. وفي تفسير القرن قالوا إنه ٣٠ سنة، وقالوا إنه ٣٥ سنة وقالوا إنه: ١٠ سنوات. ابن جرير استعرض ما قاله المفسرون حتى زمانه في ذي القرنين، لكنه لم يبين حقيقة هذه الشخصية. بل راح يسأل: أهو نبي أم ليس نبي؟، أهو من الملائكة أم من البشر؟! ومن مجموع ما استعرضه يتبين أن ذا القرنين كان يعيش في أزمان غابرة، وأنه كان نبياً وعاصر إبراهيم(ع).

بعد أن راجت أساليب البحث العلمي التاريخي أدلى الباحثون بآراء مختلفة في هذا المجال:

اتجه بعضهم لبحث عنه في اليمن بين ملوك حمير الذين يحمل بعضهم في لقبه كلمة «ذي». أبو ريحان البيروني في كتابه الآثار الباقية ذهب إلى ذلك، وتبعه ابن خلدون، غير أن هذا الرأي يقوم على فرض خاطئ، ولا يستند إلى دليل تاريخي، والشواهد والقرائن تدل على خلاف ذلك. فإذا كان السؤال الموجه إلى رسول الله(ص) من اليهود، أو من القرشيين بحث من اليهود، فليس ثمة ما يدل على وجود علاقة لليهود باليمن إلى حد أنهم يندفعون لطرح سؤالهم عن ذي القرنين ظانين أنهم يُخرجون النبي. ثم إنه لو كان ذو القرنين من اليمن لشاعت أخباره في الروايات التاريخية عن اليمن، ولسارت أخباره في عرب الشمال. بينما لا نرى أي أثر لذلك فيما روى عن العرب من أساطير، ولا في روايات الصحابة والتابعين. ولو كان من عرب الجنوب لما كانت أخباره مخفية

عن عرب الشمال وعن النبي(ص)، ولما كان هناك داع للسؤال من النبي عن ذي القرنين بقصد الإحراج.

الخصائص التي يذكرها القرآن الكريم عن ذي القرنين وتوجهه نحو الشرق والغرب لم ترد في ذكر ملوك حمير. وما قيل عن وجود شبه بين السد الذي بناه ذو القرنين وسدّ مأرب لا يقوم على دليل صحيح، فلم يذكر أحد عن وجود ألواح من الحديد في سدّ مأرب، ولم يذكر أحد عن ملك يمني حميري توغّل في الشرق والغرب وبنى سدّاً كالذي يذكره القرآن. أما تلّقب بعض ملوك اليمن بـ«ذي» واقتراعه باسم «ذي القرنين» فلا يقوم دليلاً على ما ذهبوا إليه.

وذهبت جماعة إلى أن الاسكندر المقدوني الذي اتسعت فتوحاته هو ذو القرنين. ويظهر أن ابن سينا في كتابه الشفاء هو أول من ذكر ذلك، إذ أشار في معرض حديثه عن أرسطو إلى أنه معلم الاسكندر الذي سماه القرآن الكريم ذا القرنين، ومنه أخذ الفخر الرازي في تفسيره، كما ذكر غير ذلك من الآراء في هذا الصدد، لكنه خلص إلى قبول رأي ابن سينا.

غير أننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأي، إذ لم يذكر عن فتوحات الإسكندر في الشرق والغرب، ولم يذكر في سيرته عن بناء سدّ كالذي ذكره القرآن. ويمكن القطع بأن الاسكندر لم يكن مؤمناً بالله تعالى، ولم يكن يراعي الأمم المغلوبة بالحسني، ولا يوجد شبه بين تاريخ حياة الإسكندر وما ذكره القرآن عن ذي القرنين.

ذهب المتأخرون من علماء المسلمين ومنهم أبو الكلام آزاد والسير أحمد خان الهندي والعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان إلى أن ذا القرنين هو الملك كوروش الكبير، لأن كوروش موحدٌ أولاً، وهو معروف لدى اليهود الذين توجهوا بالسؤال إلى النبي فقد ورد ذكره في العهد القديم، كما أن ما عثر عليه في حفريات «مرغاب» بإيران يؤكّد ذلك.

في كتاب العهد القديم سفر منسوب إلى دانيال النبي نرى فيه بعض أعمال دانيال،

كما فيه عرض للرؤيا التي رآها لدى أسر اليهود ببابل. وهذا الزمان من الأسر يسمى في أساطير اليهود بعهد الابتلاء العظيم لليهود، لأن بلادهم - في زعمهم - قد احتُلت وشعبهم تعرّض للذلّ وهيكلمهم المقدس قد خُرب ، وكانوا في حالة يأس وحزن كبيرين. ولم يكن أمامهم أفق لتحويل أسرهم إلى حرية، وحزّهم إلى فرح وموتهم الوطني إلى حياة.

جاء في هذا السفر: في تلك الظروف ظهر النبي دانيال، وبسبب شخصيته النبوية وحكمته البالغة قبله ملوك بابل بقبول حسن ، وأنسوا إليه، وأكرموه، وأعلوا مكانته على السحرة والمنجمين. دانيال في السنة الثالثة من جلوس الملك بيليش صر (بالتأزار) رأى فيما يراه النائم رؤيا أعقبتها أحداث وكشوفات. في الباب الثامن من ذلك السفر جاء على لسان دانيال ما معناه:

في السنة الثالثة من سلطنة الملك بيليش صر عرضت لي رؤيا رأيت فيها نفسي في قصر شوشان بأرض عيلام، وكان أمامي نهر أولاييم، وفي ذلك الجانب من النهر عنز جبلي له قرنان طويلان أحدهما أطول من الآخر، وكان يصل على الحيوانات بقرنيه في الغرب والشمال والجنوب، ولم يكن لأحد من الحيوانات قدرة على مقاومته.

وحينما كنت مستغرقاً في التفكير بما أرى وإذا بعنز جبلي ذي منظر حسن له قرن واحد يغير على ذلك العنز ذي القرنين ويكسر قرنيه ويرميه أرضاً (سفر دانيال ١/٨).

بعد ذلك يرد في هذا السفر على لسان دانيال أن جبرائيل ظهر له وشرح له رؤياه وقاله له: إن العنز ذا القرنين هو مجموعة ملوك ماد وفارس والعنز ذو القرن الواحد هو ملك اليونان (سفر دانيال ٢٠/٨)

من هذا النصّ نفهم أن تعبير الرؤيا يذهب إلى اتحاد الماديين والفارس ليشكلا دولة واحدة متمثلة بذي القرنين. ثم يغير على ذي القرنين من يقتله، وهم اليونان، أي الاسكندر المقدوني. إذ الاسكندر المقدوني أغار على داريوش، ملك ماد و فارس، وقضى على السلالة الأخمينية.

● ذو القرنين وكوروش - رؤية قرآنية

إشارتنا هذه إلى العهد القديم نريد منها فقط بيان أن اليهود في زمن رسول الله (ص) كانوا على معرفة بذوي القرنين أولاً، وأن هناك ارتباطاً في هذه الاسفار بين ذي القرنين وملوك الفرس القدماء.

وتذكر أساطير التاريخ القديم أن ظهور الملك ذي القرنين كان بداية انقراض اليهود من أسر بابل، وبعد سنين من تلك الرؤيا ظهر الملك كوروش الذي يسميه اليونان «سائروس» ويسميه اليهود «خورس» و «وحد» «ماد» و «فارس» وبذلك أوجد سلطنة كبيرة، أغار بعدها على بابل واستولى عليها، وأنقذ اليهود من الأسر.

في التوراة الموجودة بأيدينا، وربما هي نفسها التي كانت بيد اليهود في زمن البعثة النبوية، سِفران آخران غير سفر دانيال هما سفر النبي يشعياہ وسفر النبي يرمياہ. وفي سِفر يشعياہ ورد اسم كوروش في العبرية بلفظة (خوروش).

يعتقد اليهود أن سِفر يشعياہ قد كتب قبل كوروش بستين عاماً وكتاب يرمياہ قبل كوروش أيضاً بستين سنة، وفيهما ذكرٌ للملك (خوروش)، ووصفٌ لكوروش بأنه عقاب الشرق.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي اكتشف في التنقيبات تمثال لكوروش بقامة إنسان، وعلى كتفيه جناحان مثل جناحي عقاب مفتوحان، وعلى رأسه تاج يحمل قرنين يشبهان قرني وعل. وهذا التمثال كان في روعته الفنية بحيث ألفتَ أنظار الباحثين، مما حدا بجماعة من علماء الآثار الألمانين بعد أن سمعوا بالخبر إلى السفر لإيران. وبعد دراسة معالم التمثال بجناحيه وبقرنيه تبين مدى انطباق الملك كوروش مع ذي القرنين. مما تقدم نذكر:

- من سياق القرآن الكريم بشأن سؤال اليهود أو بحثٌ من اليهود عن ذي القرنين، ومن قرائن ذكر اليهود في العهد القديم يقوى الاحتمال أن ذا القرنين هو كوروش نفسه، لا الاسكندر المقدوني.

- ذو القرنين المذكور في القرآن مؤمن موحد، وكان كوروش أيضًا مؤمنًا وموحدًا. وأكبر الظن أن ظهور زرادشت كان في القرن السادس قبل الميلاد وهو تاريخ ينطبق مع تاريخ كوروش.

- ذو القرنين في القرآن شخصية مكّنه الله سبحانه في الأرض وبسط يده، وهذا ينطبق أيضًا مع شخصية كوروش الذي سيطر على قسم كبير من آسيا وأوروبا، وأسس أول امبراطورية كبيرة في التاريخ.

- ذو القرنين اتجه أولاً إلى الغرب أو إلى مغرب الشمس وهذا ينطبق مع زحف كوروش نحو الغرب ودحره كروزس ملك ليديه وسيطرته على تلك المملكة.

- ذو القرنين بعد زحفه نحو الغرب توجه نحو الشرق، وهو ينطبق مع زحف كوروش نحو الشرق باتجاه مكران وسيستان إلى حدود بلخ، وأكبر الظن أن كوروش في ذلك الزحف فتح بلاد السند، والسند هي جزء من الهند. وقد ورد في كتيبة داريوش اسم الهند في قائمة البلدان الثمانية والعشرين المفتوحة.

- ذو القرنين واجه قومًا متوحشين، وهذا ينطبق مع ذهاب كوروش نحو الشمال حيث جبال القفقاس ومحاربه قوم «سكا» المتوحشين أو بتعبير آخر يأجوج ومأجوج. وهنا دحر كوروش أولئك القوم وبني سدًا في معبر «داريال» (مضيق داريول) وهو المعبر الوحيد الذي كان أولئك يجتازونه للاعتداء على الأقوام المجاورة. وهذا السد من حديد ونحاس، وينطبق على السد المذكور في قصة ذي القرنين في القرآن الكريم. وفي الآثار يسمي الأرمن هذا السدّ «بهاك كورايي» أي مضيق كوروش. وهذا السدّ لا يزال قائمًا، وهو السدّ الوحيد الذي استعمل الحديد في صناعته، ويسمى باللغة المحلية «ديرقابو» أي البوابة الحديدية.

- ذو القرنين كان يعامل البلاد المفتوحة بالحسنى، يعاقب الظالمين ويمجزي الصالحين. وكوروش بناءً على قول هردوت المؤرخ اليوناني كان يأمر جيشه أن لا يشهروا سلاحهم إلا بوجه من يقاتلهم، وأن لا يقتلوا مستسلمًا، بحيث لم يشعر أهالي البلدان

● ذو القرنين وكوروش - رؤية قرآنية

المفتوحة بويلات الحرب. بل إن كوروش عفا عن أسراه ومنهم كروزوس ملك ليدية، وجعله من أتباعه.

وفي التاريخ القديم أثنى على كوروش أيضاً المفكرون اليونانيون القدماء مثل أفلاطون وفيثاغورس وكزنفون... وله قدسية عند اليهود والزرادشتيين والمسيحيين والمسلمين.

مع كل ذلك لا يمكن القطع بأن ذا القرنين هو كوروش نفسه، لكن الصفات المذكورة لذي القرنين أكثر انطباقاً على كوروش. والله أعلم.

المصادر:

١ - آزاد - أبو الكلام - كوروش ذو القرنين (فارسي) - مترجم: محمد ابراهيم باستاني - نشر كوروش.

٢ - ابطحي - نور الدين - إيرانيان در قرآن وروايات - ترجمه كتاب اسماء والعالم بحار الانوار - (فارسي) نشر: به آفرين سال ١٣٧١.

٣ - البجاري - علي محمد - قصص القرآن (الترجمة الفارسية) مترجم: مصطفى زماني - نشر فاطمة الزهراء - چاپ هفتم ١٣٧٧.

٤ - بوتريانگ - ذو القرنين كيست (الترجمة الفارسية) - مترجم: موسى درويش - چاپ دوم

٥ - پيرنيا - حسن - تاريخ ايران باستان (فارسي) - انتشارات دنياي كتاب - ٦٦ مقدمه كوروش كبير

٦ - جزايري - نعمت الله - قصص انبياء (فارسي) - نشر مؤسسه امام صادق (ع).

٧ - خزائي - محمد - اعلام قرآن (فارسي) - انتشارات امير كبير - ١٣٧١.

٨ - دهخدا - لغت نامه (فارسي).

٩ - ذو الفقاري - شهروز - تفسير موضوعي (فارسي) - انتشارات نگاهي ديگر -

١٣٨٦

- ١٠- سبحاني - جعفر - اهل بيت سماتهم وحقوقهم في القرآن.
١١- شريعتي - محمد تقى - تفسير نوين (فارسي) نشر فرهنگ اسلامي ١٣٦٨.
١٢- شريعتي - حسين - تحقيق دربارہ ذو القرنين (فارسي) - انتشارات اهل بيت .
١٣- شيرازي - مكارم - تفسير نمونه (فارسي)- انتشارات دارالكتب الاسلاميه
١٤- شهاب پور - عطا الله - آيات ذو القرنين (فارسي).
١٥- صفوي - سيد حسن - ذو القرنين كيست (فارسي).
١٦- صفحي - سيد محمد - قصه هاي قرآن (فارسي) - انتشارات اهل بيت -
چاب هشتم
١٧- طباطبائي - سيد محمد حسين - تفسير الميزان (الترجمة الفارسيه) - محمداقبر
موسوي - انتشارات رجاء - ١٣٧٦.
١٨- عرشي - علي - تاملات في شخصيه ذو القرنين.
١٩- مير مدرس - موسى - كوروش ذوالقرنين از ديدگاه تاريخ (فارسي)
٢٠- نيازمند - يدالله، اعجاز قرآن از نظر علوم امروزي (فارسي) - انتشارات
محمدي - چاپ مروي.